'أيام الندم': التقييم العسكري والسياسي

17-10-2004

ويوضح فيشمان أن هناك تغيرا دراماتيكيا آخر حدث في هذه العملية: سلاح الجو لم يعد كما كان مقاولا للاغتيالات يعمل في خدمة القوات البرية أو هيئة الأركان، وليس فقط قوة لتغطية القوات البرية. الآن أصبح شريكا كاملا في التخطيط والتنفيذ، لهذا الغرض شُكل قسم جديد خاضع مباشرة لسلاح الجو.
وبناء على ذلك يمكن فهم حجم المعركة التي خاضتها المقاومة الفلسطينية التي تكبدت خسائر عالية في صفوفها خصوصا من مجاهدين كتائب القسام الذين استشهد منهم نحو 40 مجاهدا
بقلم وسام عفيفة

انتهت الحملة الدموية المسماة أيام الندم شمال قطاع غزة بشكلها العام، وهو الاجتياح الواسع للمنطقة وتكثيف الضربات الجوية والبرية التي تستهدف الفلسطينيين –مقاومة ومدنيين- إلا أنه من غير الممكن القول إن الحملة انتهت بشكل نهائي في ظل إعادة الانتشار الذي نفذته قوات الاحتلال في أطراف المنطقة من جانب، وكذا عدم تحقيق أهداف الحملة وهي وقف إطلاق صواريخ القسام التي ظلت تتساقط أثناء عملية الانسحاب الإسرائيلي من جانب آخر.
وفي هذا السياق يشير الخبير العسكري الإسرائيلي اليكس فيشمان في تعليقة على ذلك بأنه قبيل الدخول إلى شمالي القطاع طلب قادة الألوية تسمية العملية "الدرع المتقدم 14" - وهي امتداد مباشر لعمليات التغلغل السابقة- ولكن قائد الفرقة، أعلمهم أن ذلك لن يكون شبيها بما حدث سابقا، وأن العملية ليست مجرد خطوة أخرى لإبعاد صواريخ القسام وأن ما يحدث هو حرب متواصلة، ولذلك يجدر تسميتها باسم جديد: "أيام الندم".
وعليه يبدو واضحا أن للعملية العسكرية دلالات ونتائج عسكرية وسياسية مهمة تحتاج لوقفه وتقييم خاصة من قبل فصائل المقاومة الفلسطينية والمجاهدين الذي خاضوا قتالا عنيفا وضاريا على مدار 17 يوما استخدمت فيه قوات الاحتلال كافة أسلحتها العسكرية الجوية والبرية والاستخباراتية والتقنيات الأولى على مستوى العالم.
حملة أيام الندم كانت منذ بدايتها حملة انتقامية تستهدف رد الاعتبار بعد أن استمر سقوط القسام وأوقع خسائر في صفوف الصهاينة، لكن لم يكن واضحا حدود مكانها وزمانها وهو ما أثار خلافا بين المستوى السياسي المتمثل برئيس الوزراء الصهيوني اريئيل شارون وقيادة جيش الاحتلال.
ويظهر ذلك منذ بداية الحملة، حيث تضاربت تصريحات أركان الدولة العبرية بشأن مواصلة العدوان الإسرائيلي على قطاع غزة، وفيما قال وزير الجيش شاؤول موفاز أن

العمليات العسكرية تسير كما خطط لها رأى وزير الخارجية سيلفان شالوم أنها دخلت مراحلها الأخيرة، بينما أفادت صحيفة "هآرتس" أن رئيس الوزراء اريئيل شارون لن يصدر أوامره بوقف العدوان قبل الانتهاء من وضع منظومة جديدة لإنذار ضد سقوط قذائف "القسام" في بلدة سديروت، جنوب إسرائيل. ومال معلقون في الشؤون العسكرية إلى الاعتقاد بأن وقف العمليات قد يتم أواخر هذا الأسبوع.

وكانت صحيفة "هآرتس" أفادت في عنوانها الرئيسي يوم 11/10 أن رئيس الوزراء اريئيل شارون رفض توصية قيادة الجيش والمنطقة الجنوبية بالانسحاب من أطراف مخيم جباليا وإعادة نشر قوات الاحتلال في محيطه، وأنه أصدر تعليماته للجيش بمواصلة الضغط على الفلسطينيين والإعداد في موازاة ذلك لنشاط عسكري في مناطق أخرى تطلق منها القذائف، وأضافت أن المسئولين العسكريين يعتقدون منذ أيام بأن العمليات "استنفذت" بصيغتها الحالية وحققت أهدافها الرئيسية، وأنهم يخشون من أن يؤدي بقاء الجيش داخل المخيم المكتظ لتعرضه للخطر، ولذا يجدر أن يتحرك إلى مناطق حيث يعتقد أن مطلقي "القسام" انتقلوا اليها.

أما على الصعيد العسكري فقد بدا واضحا أن جيش الاحتلال بدأ بتنفيذ النظرية العسكرية التي تحدثت عنها المحافل العسكرية خلال الشهور الاخيرة والتي تستبدل القوات البرية الكبيرة والمواجهة المباشرة بالضربات المكثفة والدقيقة من الجو للأهداف على الأرض بالاعتماد على المعلومات الاستخبارايتة من مصادر الكترونية –مثل الطائرات بدون طيار والعملاء-.

ويؤكد فيشمان على هذا المفهوم من خلال إبرازه أن قيادة المنطقة الجنوبية في جيش الاحتلال قد دخلت هذه المعركة مع نظرية قتالية جديدة يطلق عليها "الفقاعة"، القوات البرية دخلت جباليا مغلفة بـ"الفقاعة" الجوية والاستخبارية التي تتحرك أمامهم مُدمرة العدو وفاتحة الطريق. مشيرا إلى أن جيش الاحتلال تجنب التصادم مع المقاومة الفلسطينية خلال الحركة وإنما سعى إلى إبادتها من الجو، وأشار الخبير العسكري إلى أن القوات البرية كانت في الواقع إغراء لإظهار الفلسطينيين المسلحين ثم ضربهم، ويضيف: نظرية تفعيل "الفقاعة" حول القوة البرية تركز على ثلاثة أبعاد:

- البعد الأرضي من خلال مواقع المراقبة التي تجمع المعلومات والقناصة المختفين داخل المنطقة والذين يقومون بالإبادة.
- البعد الجوي من خلال الطائرات وغيرها الى جانب المروحيات الهجومية التي تتولى الإبادة حسب المعلومات الواردة.
- البعد الاستخباري، مصادر بشرية أو الكترونية تعطي صورة عما يحدث على الأرض لتنفيذ عملية الإبادة وفقا لها.

ويوضح فيشمان أن هناك تغيرا دراماتيكيا آخر حدث في هذه العملية: سلاح الجو لم يعد كما كان مقاولا للاغتيالات يعمل في خدمة القوات البرية أو هيئة الأركان، وليس فقط قوة لتغطية القوات البرية. الآن أصبح شريكا كاملا في التخطيط والتنفيذ، لهذا الغرض شُكل قسم جديد خاضع مباشرة لسلاح الجو.

وبناء على ذلك يمكن فهم حجم المعركة التي خاضتها المقاومة الفلسطينية التي تكبدت خسائر عالية في صفوفها خصوصا من مجاهدين كتائب القسام الذين استشهد منهم نحو

40 مجاهدا من مجموع 120 فلسطينيا استشهدوا في العدوان، وقد حاولت المقاومة أن تواجه التكنولوجيا الإسرائيلية المتقدمة بوسائل بدائية مثل دخان الإطارات المشتعلة واستخدام البطانيات وقطع القماش الكبيرة لتغطية أزقة وشوارع مخيم جباليا حيث تتحصن المقاومة الفلسطينية.
كما أن المقاومة الفلسطينية سعت إلى جر جيش الاحتلال لمواقعها وكمائنها، حيث تجيد استخدام أسلحتها البسيطة من ألغام أرضية والقذائف المضادة للدروع، والتي في معظمها صناعة محلية، واستطاعت بذلك ضرب آليات الاحتلال في مواجهات شرسة وإعطاب العشرات منها، ولكن كان دائما سلاح الجو الإسرائيلي هو العقبة التي واجهت المقاومة خصوصا طائرات الاستطلاع التي أصبحت تقوم بعمليات القصف أيضا، فكانت السلاح الأشد فتكا والأكثر خطورة، وكان على المقاومة أن تستوعب هذه الخطة العسكرية الصهيونية مبكرا إلا أن روح الإقدام والاستشهاد التي تغلب على طبيعة أسلوب وعمل المقاومين كانت هي السائدة على عملهم، غير أن هذا الأسلوب نجح أحيانا، خاصة محاولات التقدم نحو الصفوف الخلفية لضرب العدو، وقد نجحت المقاومة في الأيام الأولى من العدوان في الوصول إلى المستوطنات والمواقع التي تنطلق منها قوات الاحتلال وتنفذ عمليات توقع خسائر في صفوف الجيش والمستوطنين.
كما أنه مع مرور الوقت استطاعت المقاومة استيعاب تحركات آليات جيش الاحتلال ومواقع تمركزه في المنطقة في الأيام الأخيرة من الحملة وضربها، وهو ما تظهره العمليات المصورة العديدة التي عرضتها كتائب القسام لمجاهديها وهم يقصفون آليات الاحتلال ويفجرون الألغام فيه، الأمر الذي دفع قيادات الجيش إلى المطالبة بالانسحاب لأن المكوث في المنطقة فترة أطول يعني إيقاع خسائر في صفوفها، حيث تكون انتهت مرحلة المفاجاة الأولى للمقاومة.

الحملة الدموية "أيام الندم" حملت أيضا دلالات سياسية تتعلق بالشان الإسرائيلي الداخلي والمأزق الذي يواجهه شارون بشان خطة فك الارتباط من جانب، والرسائل السياسية التي توزعها الدولة العبرية على الفلسطينيين والمصريين وباقي الأطراف في المنطقة. وفي هذا السياق كتب فيشمان أنهم في جيش الاحتلال قدروا أن حماس سترفع من مستوى التصعيد وتدخل في حرب قتالية شاملة قبيل موعد فك الارتباط، مشيرا إلى التبكير في الإعلان عن الحرب من قبل حماس صب في مصلحة جيش الاحتلال تحديدا لأنه مكنه من الشروع في خطوات مبكرة لإنشاء مناطق أمنية عازلة حول المستوطنات التي سيتم اخلاءها.
محللون سياسيون أشاروا أيضا إلى التفسيرات وراء إصرار شارون لإطالة الحملة معتبرين أن الأسباب وراء ذلك سياسية، وليست أمنية، فالهدف المعلن لحملة "أيام الندم"، حسب تصريحات رئيس الوزراء ووزير الجيش شاؤول موفاز، هو وقف صواريخ القسام على سدروت. ومع أن الصواريخ ضعفت في الآونة الأخيرة، فإن وقفها كلية بعيد عن التحقيق. وشارون، الذي يعرف هذه الحقائق، يدرك جيدا وضعه السياسي الآخذ في التعقد، فحيال ادعاءات اليمين ضده بتقديم التنازلات وضعف أدائه السياسي، يبقى

لشارون ساحة واحدة يمكن له أن يتخذ فيها صورة الحازم والصلب دون دفع ثمن باهظ جدا من جانبه وهو النشاط العسكري.